البيئة الاجتماعية وآثارها

البيئة الاجتماعية هى المظاهر التى تؤثر فى الفرد والمجموع بذاتها ، أو بمقدار الصلة بها . وهذه المظاهر كثيرة ، منها التجارة والصناعة والزراعة والصناعة والعلم والسياسة والدين والأسرة والأخلاق ومظاهر الحضارة عامة .

وقد عرض ابن خلدون لبعض مظاهر البيئة الاجتماعية ، وبين آثارها فى الأفراد والجماعات ، وآراؤه فى هـــذه البيئة منثورة فى مواضع شتى من المقدمة[1] .

أثر الدين

الدين الحق هو الموحى به إلى رسول ، وهو أحد العوامل الكبرى فى تأسيس الدولة ونشأة الأمة ، لأن الملك لايقام إلا بالغَلَب ، والغَلَب لايكون إلا بالعصبية ، والأهواء المتفقة ، والقلوب المؤتلفة ، والنفوس المجتمعة . ولا يتحقق شىء من هذا إلا بمعونة من الله فى إقامة دينه ، قال تعالى « لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ، ولـكن الله ألف بينهم » .

والسر فى ذلك ، أن القلوب إذا تداعت إلى الباطل ، ومالت إلى الدنيا حصل التنافس ، وفشا الاختلاف . وإذا انصرفت إلى الحق ، ورفضت الدنيا والباطل ، وأقبلت على الله اتحدت وجهتها ، فذهب التنافس ، وقل

---

(١) المقدمة ٦٩ - ٧٧ ، ١٠٣ - ١٠٦ ، ١٢٢ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ٢٩١ - ٢٩٣ ، ٣٠٢ - ٠٤ ، ٣١٢ ، ٣٣١ - ٣٣٤ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٤٨٧

الخلاف ، واستمكن التعاون والتساند ، واتسع نطاق الكلمة فعظمت الدولة »[1]

ويرى أن الدين يزيد الدولة قوة على قوة العصبية التى لها من عددها ، ويستشهد على ذلك من فتوح العرب .

تعليق

وهو على الحق فى هذا ، فإنا لانستطيع أن نعلم السبب الحقيقى فى فتح المسلمين سراعا بلاد الفرس والروم ، إن أغفلنا العصبية التى تدعمها حماسة الإسلام ، وتسندها خلال الصحراء ، فى حين كان الضعف الاجتماعى يقوض هيكل الروم والفرس . حقا إن الدين هو العمد القوية فى بناء الدولة ، ولكن ليس السبب أن الله يعين عباده على إقامة دينه كما ذهب ابن خلدون . فإن الدل قد تنشأ وتقوى وهى على غير دين سماوى كاليابان وكثير من أمم العالم القديم ، وقد تنشأ دول وتقوى وهى هاجرة لدينها . وإنما السبب الصحيح أن الدين ضرورى فى تأسيس الدولة وتقويتها ؛ لأنه يؤلف بين القلوب المتنافرة ، ويجمع الأهواء المبعثرة ، ويوحد الأهداف المكثرة ، والإنسان أبدا يتعصب لرأيه ، وينافر من يشاركه فى نزعته ، وأى رأى أسمى من الدين ؟ « اذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » .

ولقد ذهب كرامر إلى أن ابن خلدون لا يعد الدين سندا من أسناد الدولة ، وعاملا من عوامل الحضارة ، بل يجعله فى المنزلة الثانية والمكان التابع ، وهذا غير صحيح ، لأن ابن خلدون يعتبر الدين شرطا أساسيا

(١) المقدمة ١٣١

فى الحضارة وبناء الدولة كالعصبية [1] . وهو لهذا لا يقر الخلاف بين الفلسفة والدين ، ويحاول التوفيق بينهما كما حاول ابن رشد من قبل . ولأنه يرى الفضائل شرطا لقيام الدولة ، والدين جماع الفضائل الإلهية المنزهة عن النقص ، ثم إن العصبية المجردة عن الخلال الحميدة عيب فى ذوى الأحساب ، فأحرى بها أن تكون أشنع فى ذوى السلطان ، والسياسة والحكم ضمان لمصالح العباد ، ونيابة عن الله فى إعلاء كلمته ورعاية عباده ، وذلك كله من الشرع والدين . يقول ابن خلدون « فمن حصلت له العصبية الكفيلة بالقدرة ، وأونست منه خلال الخير المناسبة لتنفيذ أحكام الله فى خلقه ، فقد تهيأ للخلافة فى العباد ، وكفالة الخَلْق ، ووطدت فيه الصلاحية لذلك » ويقول : « والشر أقرب الخلال إلى الإنسان إذا أهمل عوائده ، ولم يهذبه الاقتداء بالدين »

على أن ابن خلدون لم ينظر إلى الدين إلا أنه كالعصبية دعامة لقيام الدولة وقوتها ، وأنه تكأة تعتمد عليه الجماعة . ولم يذكر آثار الدين فى حياة الأفراد من حيث إنه بلسم الجراح الدامية ، ومنار النفوس الضالة ، وسلوى القلوب المحدودة أو المكدودة ، والوازع إلى تهذيب النفس وتطهيرها . إن المؤمن بالله يسمو بإيمانه فوق المادة ، أو يقرب من ربه بقدر إيمانه ، وتعظم نفسه إذ يدعو ربه أن يكون عونه فى الخطب الفادح والرزء الشاده ، لأنه يستمد القوة من رب القوة .

والمجتمع المستمسك بدينه مجتمع فاضل سعيد ، وليس قويا فحسب كما ذهب ابن خلدون ، لأن رقابة القانون وسطوة السلطان وازع خارجى

---

(١) المقدمة ١٣٢

يعتمد على القوة ، قاصر لا يرى إلا فى الجهرة ، أما رقابة الدين فهى ذاتية ، وهى قديرة بصيرة ، تزع بالعاطفة والأمل ، وتعلم الجهر والنجوى .

وربما انصرف ابن خلدون عن بيان آثار الدين عامة ، لأنه كان يتحدث عن الدول وعوامل قيامها وأسباب قوتها ، فأولى جانبا واحدا من الدين عنايته ، لأنه أشد اتصالا بموضوعه .

نظام الحكم

يرى أن الحكم الهين اللين المتساهل يجعل المحكومين مُدِلِّين بقوتهم وحريتهم وشجاعتهم وضعف وازعهم ، والحكم الصارم القاسى العنيف يخضد شوكتهم ، ويذهب نخوتهم ، ويكسر منعتهم ، فيتكاسلون ، لأنهم مضطهدون ، ويتعودون الذل والخنوع ؛ لأنهم يُظْلَمون فلا ينكرون ، ويهانون فلا يدفعون .

أما الحكم العادل فيخلق فى النفوس الطاعة والانقياد ، والهيبة عن رغبة واقتناع .

ويرى أن الحكم بجميع أنواعه مضعف للبأس ، ويستدل على ذلك بأن طلاب العلم الذين مارسوا الجلوس إلى الأساتذة والاستماع لهم ضعفاء الشجاعة واليأس ، وأن المتحضرين قد وكلوا حمايتهم إلى الشرطة والأسوار والحصون فنشأ فيهم الجبن . أما البدو فهم بمعزل عن السلطان وأحكامه[1]

تعليق

وقد جنح هنا أيضا إلى إيثار حياة البداوة على حياة الحضارة ، وحياة

---

(١) المقدمة ١٠٥ - ١٠٧

الفطرة والعرف على حياة النظام والتشريع والحكم ، والقضاء والإدارة . ونرانا مضطرين إلى مخالفته ، لأننا نرى أن الحكم العادل الحازم يسمو بالأخلاق ، ويرقى بالأمم ، ويسوى بين الناس فى الفرص ، ويجعل للناس حقوقا مرسومة ، وواجبات معلومة . أما حياة البدو فإنها قائمة على أن الحق للقوة . لهذا يشيع فيها نوع من الفساد والاضطراب والفوضى .

ثم إنا لا نوافقه على أن جلوس الطلاب إلى أستاذهم يذهب منعتهم وباسهم ، لأنهم يعتادون جلسة الوقار والهيبة [١] ، ولأنهم يهابون أستاذهم ويحبونه ، فإن هذا لا يمنع أن يكونوا شجعانا حيث تطلب الشجاعة ، وإلا فكيف ينشر التعليم بين الناس ؟ وهل يمكن تعليم بغير معلم يُحَب ويهاب ؟

كثرة السكان

يرى — كما رأى الفارابى من قبل [٢] — أن الإنسان مدنى بطبعه ، فلن يقدر على قضاء حاجاته وحده ، فلا بد له من التعاون ، والجماعة المتعاونة تنتج أكثر من الفرد ، سواء وزعت العمل فيما بينها ، أم قامت به دفعة واحدة كلها [٣] . وبعض ما تنتجه الجماعة يكفيها ، وباقيه يرسل إلى الأمصار الأخرى ، ثم ينفق ثمنه فى الترف ، وإذاً فكثرة السكان من أسباب الثراء والترف والتأنق فى المساكن والملابس واستجادة الآنية ، واتخاذ الخدم والمراكب .

وإذا كانت هذه الأشياء تشجع على الترف فإنها تروج التجارة والصناعة ،

---

(١) المقدمة ١٠٦ (٢) آراء أهل المدينة الفاضلة ٥٣ نشره فردريك ديتيرسى Dr. Friedrick Dieterici (٣) المقدمة ٣٥

وتشجع على البيع والشراء ، والأخذ والعطاء ، والعرض والطلب ، وإذاً تروج وسائل الترف أكثر من قبل ، ويتزايد الثمن ، ويرتفع أجر العامل والصانع . إذا فتى كثر السكان انتعشت الأعمال ، وزاد الكسب ، وارتفع الأجر ، فنشأ الترف ، فاشتد الغلاء وعظمت قيم الأشياء . وإذا كانت كثرة السكان ترفع أثمان وسائل الترف فإنها فى الوقت نفسه تنقص أثمان الضروريات ، لأنها موفورة وزائدة على الحاجة .

ويذهب إلى أن ترف المدينة ليس سمة لأغنيائها وحدهم ، بل إن الفقراء يطمحون إلى أن يترفوا أيضا ترفاً نسبياً ، ويستدل على ذلك بأن السائلين بفاس أحسن حالا من السائلين بتلمسان أو وهران ، ويقول : « ولقد شاهدت بفاس السؤّال يسألون أيام الأضاحى أثمان ضحاياهم ، ورأيتهم يسألون كثيراً من أحوال الترف ، مثل سؤال اللحم والسمن ، وعلاج الطبخ والملابس والماعون ، ولو سأل سائل مثل هذا بتلمسان أو وهران لاستنكر وعُنِّف وزُجر » . ويقرر أنه سمع عن أحوال مصر وثرائها العجب ، وأن كثيراً من فقراء المغرب يزحفون إليها بغية الارتزاق ، وما ذلك إلا لأن العمران قد استبحر وعظم بمصر وفاس [1] .

تعليق :

اتفق مونتسكيو مع ابن خلدون فى أن كثرة السكان وثراءهم مجلبة للترف ، ورأى أنهم كلما كثروا فى مكان تسلط عليهم الكبر والأثرة حتى ليجهل بعضهم بعضاً ، ورأى أن كثرتهم تستدعى ارتفاع الأثمان ؛ لأن

---

(١) المقدمة ٣٠٢ — ٣٠٦ — ١١٨ — ١٣٩ — ١٤٠

الذين يجيدون أعمالهم يرفعون من قيمتها ، فيحاكيهم فى ذلك غيرهم من الذين لا يجيدون عملهم .

وقرر أن الترف سلم إلى الفجور والتهتك وقلة المبالاة ، وأنه كلما قل فى الأمة زاد كمالها ، وكلما تفشى فى أمة آثر أهلوها مصالحهم الذاتية ، وانصرفوا عن المصالح العامة .

وذهب إلى أن الذين يقنعون بالضروريات هم الذين لا يبتغون إلا مجد الوطن [١] .

على أنه بسط القول فى الترف وأسبابه وجرائره [٢] .

ويكاد يكون ما ذكره مونتسكيو تفصيلا وتدليلا على ما ذكره ابن خلدون ، وإذا كان ابن خلدون قد اهتم بآثار كثرة السكان فى الحياة الاقتصادية ، فقد تحدث عن آثارها فى الجسم والعقل والخلق فى موضع آخر هو الحضارة .

محاكاة المغلوب للغالب

قرر أن المغلوب يعتقد الكمال فيمن غلبه ، فيتشبه به فى ملبسه ، ونحلته ، ويحاكيه فى أخلاقه ومعيشته ، ويحاكيه فى جميع أحواله . وهو مدفوع إلى هذا التقليد ، لأن الغالب لقنه أن يعظمه ، وبث فى روعه أنه ضعيف متخلف عن قافلة الحياة ، وأوحى إليه أنه غلبه لأنه أقوى منه وأصلح للحياة ، فيجتهد المغلوب فى التشبه بغالبه ، ليدركه ويماثله . أو هو مدفوع إلى هذه

---

(١) De l'Esprit Des Lois. P. 233

(٢) P. 230 — 245

المحاكاة ، لأنه وَهَم فى نفسه الضعف والقصور بسبب الهزيمة والقهر ، وتوهم فى غالبه القوة والكمال ، فيجدّ فى المحاكاة والنقل والاحتذاء [١]

تعليق :

وهذا حق كله ، لأنا نتمثله فى أحوال الأمم غالبةً ومغلوبةً ، حديثة وقديمة . فمثلا كان العالم فى العصور الوسطى يهتدى بالعرب ، ويحاكيهم فى نظمهم ، ويأثر عنهم ثقافتهم وعلومهم وآدابهم ؛ لأن الدولة والقوة كانت لهم . فلما دالت الأيام وصار الغَلَب للغرب أخذنا ننقل عن الغربيين كل شىء ، ونعتقد أنهم يفوقوننا فى كل شىء ، حتى لنكاد ننسى خصائصنا ، وحاجات بيئتنا وضرورات وراثتنا وماضينا .

ولقد اندفع بعض الشرقيين إلى هذا التقليد العجيب ، مخدوعين بدعاوى الاستعمار الباطلة أن الشرقيين عجزة جهلة ، يجب أن يستظلوا بالغربيين ، ويتعلموا منهم ، ويخضعوا لهم ، ويحاكوهم فيما يستطيعون أن يحاكوهم فيه . ثم مدفوعين بما يوحى به الاستعمار وبيثه من قوة الغرب وتفوقه وتميزه بالعقول الفذة والمهارة فى كل ضرب من ضروب الحياة ، لذلك غرق بعض الشرقيين فى المحاكاة العمياء ، فحاكوا فيما لا يوائم تاريخهم وبيئتهم وجوهم وعاداتهم ودينهم ، بل لقد حاكى بعضهم فيما يقاومه عقلاء الغربيين ، وفيما لم تثبت صلاحيته بعد .

على أنا نضيف إلى تعليل ابن خلدون أن تقليد الضعيف للقوى غريزة ، فالطفل يقلد أباه وأمه وأستاذه والمتفوق عليه ، والشعوب تحاكى ملوكها فى

---

(١) المقدمة ١٢٣

نظم المعيشة ، لأن الناس على دين ملوكهم ، وكذلك يحاكى المغلوب غالبه مدفوعا بغريزة المحاكاة .

وإذا كانت هذه المحاكاة معيبة أحيانا فإنها عظيمة الأثر فى رقى الفرد والجماعة ، لأن المغلوب يقلد غالبه فيضطره التقليد إلى اتخاذ الوسائل الكفيلة بأن يقوى ويرقى ، ولو لا هذا التقليد لانْبَتَّ المتخلف وظل منبتاً عن قافلة الحياة الدائبة على سيرها إلى الأمام .

أثر الحضارة فى الأخلاق والعقول

١ — لا شك أن العلوم والصناعات تكثر وتجود حيث الحضارة والعمران [١] ، لأنها أمور زائدة على المعاش ، ومتى اطمأن الناس على أرزاقهم اتجهوا إلى ما وراء الأرزاق من علوم وصناعات . والدليل على ذلك أن بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة والقاهرة لما كثر عمرانها ، وازدهرت حضارتها ماجت بالعلم والعلماء والطلاب ، ثم لما شاخ عمرانها وقل سكانها طُوِيَتْ صحفها وجفت أقلامها .

ويضرب المثل بمصر فى عهده « ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر ، لأن عمرانها مستبحر ، وحضارتها مستحكمة منذ آلاف السنين ، فاستحكمت فيها الصنائع ، ومن جملتها تعليم العلم » [٢]

ويرى أن للحضر عادات ونظماً وآدابا يلتزمونها ويتوارثونها ، « ولا شك أن كل صناعة مرتبة يرجع منها إلى النفس أثر يكسبها عقلا جديداً تستعد به لقبول صناعة أخرى ، ويتهيأ بها العقل لسرعة الإدراك للمعارف »

---

(١) المقدمة ٣١٠ (٢) المقدمة ٣٦٤

تعليق :

وهذا حق ، لأن العقل يرقى بالتجارب والمخالطة والاطلاع والمران ، ولا شك أن المران يكسب العقل قوة وحياة ، ويفسح المجال للمحاولات والابتكار ، ولا شك أن المخالطة حافز على التنافس والإنتاج ، وأن حياة الحضارة عون على الاستزادة من الثقافة عامة ، وعون على التعليم المنظم والتعلم منذ الصغر ، وهذا كله لا يكون إلا فى المجتمع المتحضر . وفى هذا المجتمع يتميز الإنسان بالبحث النظرى والتجريبى ، والإنتاج العلمى ، لأن الحضارة هى البيئة العتيدة للعلوم والصناعات والفنون .

٢ — ويرى أن الحضارة تستدعى الافتنان فى الترف ، والكَلَف بالنعيم ، والتأنق فى جميع المرافق ، وأن ذلك يستدعى نَهَماً إلى اللذات ، وجوعاً إلى الشهوات ، وإنفاقا عن سعة . وإذ كانت أثمان الحاجات فى المدن أغلى منها فى القرى والبوادى فإن الإنفاق فى المدينة يصير إسرافا ، وقد تعجز موارد الشخص عن تحقيق ما يريد ويشتهى فيستدين ، ويكلف نفسه ما لا يطيق ، فيُملق ، ويغلبه الفقر .

وهذه الحياة تجبر الناس على المغالبة فى طلب الرزق ، والمجالدة فى جمع المال ، سداً للحاجات ، وقضاء للمآرب ، وجرياً وراء العادات ، فيكثر التحاسد والتعادى والغش والتحايل ، لذلك فإن الحضريين سراع إلى الكذب والخنث فى الأيمان ، ميالون إلى السرقة والقمار ، بعيدون عن الاحتشام ، موصوفون بالفسق والفجور ، وقلة المبالاة بالخلق والعرف . وإذا كثرت هذه الرذائل فى أمة أذن الله بخرابها ، وهذا معنى قوله تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ، ففسقوا فيها فحق عليها القول ، فدمّرناها تدميراً » .

ثم إن الحضرى لا يعتمد على نفسه فى أكثر حاجاته ، عجزاً أو ترفعاً ، وكلاهما وبيل . وهو عاجز عن حماية نفسه ؛ لأنه ألف أن تحرسه الحامية ، وهو ضعيف التدين فى الغالب (١) .

تعليق :

أسلفت التعليق على هذا الرأى فى البيئة الطبيعية ، فلا حاجة إلى تكرير . على أن ابن خلدون لا يفتأ يتعصب لحياة البداوة وينحى بالمثالب على حياة الحضارة .

أثر الفلاحة فى الأخلاق

يرى أن الفلاحة أقدم الصناعات ، لأنها مصدر القوت الضرورى لحياة الإنسان ، وأنها اختصت بالبدو ، لأنه أقدم من الحضر وسابق عليه (٢) .

ويرى أنها صناعة الأذلاء المستضعفين ، لذلك لا يحترف بها أحد من أهل الحضر فى الغالب ، ولا من المترفين ، ويستدل على مذلة الفلاحين بقوله صلى الله عليه وسلم وقد رأى سكة (محراثا) ببعض دور الأنصار : « ما دخلت هذه دار قوم إلا دخلهم الذل » .

ويعلل لذلك بأن الفلاحة تقتضى دفع الضرائب لذوى السلطان ، وكفى ذلك مذلة لا تحتملها النفوس الأبية ، وأنها تستدعى الاستكانة والمكر والخديعة للخلاص من القهر والاستطالة (٣) .

---

(١) المقدمة ٣١٢ — ٣١٤ (٢) المقدمة ٣٤٠

(٣) المقدمة ٣٣١

تعليق :

ليست الفلاحة أقدم الصناعات . لأن الإنسان مارس الصيد أولا ، واقتات بما تنبت الأرض ، ثم مارس الزراعة بعد ذلك .

على أن فى هذا الرأى مغالاة وحَيْفا ، فالضرائب تُجْبَى من الصناع والتجار والموظفين كما تجبى من الفلاحين ، والناس جميعا خاضعون للقانون ، معتمدون على الحكومة فى الدفاع والحماية ، معرضون جميعا لبطش السلطان وهم يتحايلون للنجاة من عدوانه إن كان مستبداً ظلوما . فلماذا يقصر ابن خلدون هذه الأمور على الفلاحين ؟ أما الحديث الذى استشهد به فعلى فرض صحته فإنه محمول — كما ذهب البخارى — على الاستكثار من الزراعة وإهمال غيرها .

ولئن كانت الفلاحة من أعمال الضعفاء فى بعض الأحيان إن الصناعة والتجارة والعمل فى الحكومة من أعمال الكثير من الضعفاء .

على أن للفلاحة آثاراً لم يذكرها ابن خلدون ، هى القناعة والرضا ، والإخلاد إلى الوطن ، والركود الذهنى ، مما يجعل الفلاحين ألصق بمدارج طفولتهم ، وأشبه فى عملهم الزراعى بالسالفين من آبائهم ، فلا هم يحبون الهجرة ، ولا هم يجددون فى وسائل العمل .

أثر التجارة فى العقول والأخلاق

يرى أن التجارة تجنى على الخلق ، لأنها مفتقرة إلى المساومة والكذب والحنث فى الأيمان ، ومحتاجة إلى الغش والخلابة .

ويرى أن التاجر مضطر أن يوطد صلته بالحكومة لتعينه فى قضاياه

التي يشكو بها حرفاءه ، ولئلا تستولى على متاجره إذا افتقرت إلى المال ، وأنه منهوم إلى الربح ، يتلمسه أحيانا من طرق لا يقرها الشرع ، ولا يرضاها الخلق ، ولا يطمئن إليها العرف . وهى إلى ذلك كله منقصة للذكاء .

ولهذا يتحاماها الأشراف وذوو المكانة ، وقد يزاولها بعضهم بوسطائه وعماله لا بنفسه [1] .

تعليق

ليس ابن خلدون بدعا فى هذا الرأى ، فقد قال به منتسكيو بعده بقرون : « يمكننا أن نقول إن قوانين التجارة تحسن الأخلاق للسبب نفسه فى أن هذه القوانين تفسد الأخلاق ... ورأينا فى البلاد التى غلبت الروح التجارية على أهليها أن المضاربة تغشى كل الأعمال الإنسانية وكل الفضائل الخلقية ، وأن أيسر معونة إنسانية تعمل أو تعطى نظير المال » .

ولكن هل نعتبر هذا الرأى صحيحا ؟

لعله كان خليقا بالصحة فى عهده ، ولعله خليق بالصحة إلى عهد قريب ، فإن كثيراً من ذوى الأقدار فى الشرق كانوا يترفعون عن الاحتراف بالتجارة ، أما الآن فقد تغير الحال أو قطع فى طريق التغير مراحل .

فالحكومات الآن لا تستولى على مال التجار كما كان يحدث فى عصر ابن خلدون ، والحرفاء لا يجدُّون فى أكل مال التجار كما كانوا يجدون ، وليس القضاة وأولو الأمر بحاجة إلى أن يتملقهم التجار ويكسبوا عطفهم لينصفوهم فى قضاياهم كما تحدث ابن خلدون عن عصره .

---

(١) المقدمة ٣٣١ — ٣٣٤

ثم إن كبار التجار فى الشرق والغرب الآن كرام الخلق موفورو المروءة ، وشعار التجارة الحديثة الصدق والأمانة ، حتى إن التجار يتعاملون بالائتمان ، فيشترون سلعا بمبالغ كبيرة من المال إلى أجل ، ثم يفون بوعودهم ، ويسرعون إلى أداء ديونهم .

وقبل عصر ابن خلدون مدح الجاحظ التجار بأنهم أورع الناس ، وأهنؤهم عيشا ، وآمنهم سِرْبا ، لأنهم فى أفنيتهم كالملوك على أسرتهم ، يرغب إليهم أهل الحاجات ، لا تلحقهم ذلة فى مكاسبهم . وضرب أمثلة على شرفهم من حال قريش ، ومن اشتغال النبى عليه الصلاة والسلام بالتجارة .

ثم رد على يَدَّعى أن التجارة تصرف صاحبها عن العلم والأدب بأن كثيراً من جلة العلماء كانوا تجارا [1] .

تعليق عام

غلا ابن خلدون فى آثار البيئة الاجتماعية ، لكن غلوه هنا أقل من غلوه فى آثار البيئة الطبيعية ، وأخف من غلو كثير من المحدثين الذين ينسبون إلى البيئة الاجتماعية كل شىء ، فيرون أن الفرد مدين لها بغرائزه وانفعالاته وميوله وقواه الفكرية ومظاهر نزوعه وسلوكه وأخلاقه ، وأن عوامل التربية الأخرى كاللعب والوراثة والتقليد ليست إلا جنودا لهذه البيئة تأتمر بأمرها ، وتنفذ ما قضت به .

وفى طليعة هؤلاء العلامة الاجتماعى دوركهايم Emil Durkheim وتلاميذه . حتى لقد ذهبوا إلى أن ما يسميه الفلاسفة بأسس التفكير (تقييد

---

(١) رسالة مدح التجار ١٥٥ من مجموعة رسائل للجاحظ . نشرها سامى .

المدركات بالزمان والمكان ، عدم اجتماع النقيضين الخ) ليس فطريا فى الإنسان بل كسبه الناس كسبا بتأثير البيئة الاجتماعية العامة ، مستدلين بأن كثيرا من الأمم المتوحشة قد زودتهم بيئتهم بنوع من التفكير يسيغ اجتماع النقيضين ، ولا يرون خطأ فى أن يكون الشىء هو نفسه وغيره فى آن واحد[1]. ولكن الحقيقة أن للبيئة الاجتماعية آثارا عظيمة فى العقل والخلق ، وإن كانت وحدها لا تقدر على صوغ الناس ، فمن التجنى على عوامل التربية الأخرى كالبيئة الطبيعية واللعب والمحاكاة والوراثة والتعليم أن نخضعها للبيئة الاجتماعية .

تقسيمه للعلوم

كان ابن خلدون أول مؤرخ للعلوم فى طراز جامع للحركة العلمية والأدبية فى الشرق الإسلامى إلى القرن الثامن الهجرى ، فهو عليم بالكتب ، خبير بالعلماء ، متتبع تطور الفكر وتشعب جداوله ، بصير بالمنابع والجداول والمصاب .

وما زال القسم الذى كتبه فى تاريخ العلوم والأدب والصناعات منهل الذين يدرسون تاريخ الفكر الإسلامى ، وقد أسلفت أسماء كثير من المؤلفين الذين اعتمدوا على ابن خلدون ونقلوا عنه أسماء الكتب والعلوم والفنون ، ونقلوا عنه أقسامها .

وهو يرى أن العلم ثمرة لحركة الفكر ، وأن الفكر لا ينضج إلا فى المجتمع حيث التمرين والخلاط ، وأن أنضج الفكر ما كان فى الحضر ؛ لأن

---

(١) فى التربية ١٩٢

البدو والحضر يتفقون فى الفهم الذى يدرك مسائل خاصة ، وفى الفهم العادى المتعلق بالمعاملة وتبادل المنافع ، وإن كان الحضر أرقى من البدو فى ذلك . ثم إن الحضريين يمتازون بالتفكير النظرى الذى يربط الأسباب بالمسببات ، ويؤلف الصلات بين الأشياء ، ويستنبط الأفكار العامة التى تقوم عليها العلوم (١).

ويرى أن العلوم ضرورية لتقدم الحضارة ، وأنها ذات أثر عظيم فى عقول الناس وأخلاقهم . لهذا خصها ببحث مستفيض فى مقدمته (٢).

ويوافقه فى الاهتمام بالتربية والتعليم العلامة مونتسكيو فى قوله : « إن قوانين التربية هى أولى ما نتأثر به من الصغر ، وهى تعدنا لأن نكون وطنيين صالحين فى الأسرة وفى الأمة (٣).

وقد قسم العلوم إلى قسمين :

قسم طبيعى يتهدى إليه الإنسان بفكره ، وقسم نقلى يأخذه عمن وضعه.

الأول هو العلوم الحكمية الفلسفية ، وهى التى يمكن أن يعرفها الإنسان من تلقاء نفسه ، ويهتدى إليها بإدراكه . والثانى هو العلوم النقلية الوضعية المستندة إلى الشرع ، ولا مجال فيها للعقل إلا فى إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول . وللعلوم الشرعية علوم أخرى تعين على فهمها كالتفسير والحديث والقراءات والفقه وأصول الفقه والكلام ، وعلوم اللسان العربى من لغة ونحو وبيان وأدب . وهذه العلوم الشرعية يختص بها الإسلام .

أما العلوم العقلية فطبيعة للإنسان المفكر ، وليست من خصائص ملة .

---

(١) المقدمة ٣٥٩ - ٣٦٤ (٢) المقدمة ٣٦٦ - ٥٢١

(٣) De l'Esprit Des lois. P. 82.

وهى قديمة فى النوع الإنسانى . وتشتمل على أربعة علوم : المنطق ، والطبيعة، وما وراء الطبيعة أو الإلهيات ، والتعاليم أى الهندسة ، والأرتماطيقى ، والموسيقى ، والهيئة ، ويرتبها ترتيبا تصاعديا ، فالمنطق أولا ، والتعاليم بعده (الأرتماطيقى . الهندسة . الهيئة . الموسيقى) ثم الطبيعيات ، ثم ماوراء الطبيعة .

ولكل علم من هذه فروع ، فمن فروع الطبيعيات الطب ، ومن فروع العدد الحساب والجبر والمقابلة ، ومن فروع الهيئة الأزياج ، والمنطق يتبوأ من هذه العلوم كلها مكانة علوم اللسان من الشرعيات .

والفرق بين العلوم الفلسفية والشرعية أن الأولى نتاج الفكر وحده ، والثانية مصدرها الأصيل هو الوحى . والأولى عرضة للصواب والخطأ ، والثانية معصومة من الزلل والخطل [1]. ثم شرع يفصل القول فى كل علم .

وقد غض من شأن الفلسفة وأنحى عليها ، وهو يريد الفلسفة التى تبحث فى الإلهيات وما وراء المادة أو تنكر الخالق سبحانه ، ويختم كلام بقوله « هذه هى ثمرة هذه الصناعة مع الاطلاع على مذاهب أهل العلم وآرائهم . ومضارُّها ما علمتَ . فليكن الناظر فيها متحرزا من معاطبها ، وليكن نظر من ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات ، والاطلاع على التفسير والفقه . ولا يكبَّنَّ أحد عليها وهو خلو من علوم الملة ، فقلَّ أن يسلم لذلك من معاطبها [2] » .

وإنه لصائب النظرة ؛ لأن دراسة الفلسفة المتصلة بما وراء المادة يجب

---

(١) المقدمه ٣٦٤ ، ٤٠١

(٢) المقدمه ٤٥٩

أن تُسْبَق بدراسة للدين حتى لا يتفشى الإلحاد والجرأة على نقد الشرع ممن لا يعرفون أصول الشرع .

ثم يتحدث عن الصناعات فيقسمها إلى نوعين . ويرى أن نوعها الأول ضرورى للعمران ، كالفلاحة والبناء والخياطة والنجارة والحياكة ، ونوعها الثانى شريف كالخط والكتابة والوراقة والغناء والطب [1] ثم يفصل القول فى كل نوع .

الطريقة المثلى فى التعليم

يرى أن التعليم لا يثمر إلا إذا تدرج مع عقل التلميذ واستعداده وقدرته على الفهم .

١ — لهذا يجب أن يكون على ثلاث مراحل :

فى المرحلة الأولى يلقى الأستاذ على التلميذ أصول المسائل وقواعدها العامة من العلم الذى يدرسه له . فإذا ما انتهى منها فقد حصل على ملكة فى ذلك العلم لكنها ضعيفة ، وقصاراها أن هيأته للفهم وللتحصيل .

وفى المرحلة الثانية يرجع به إلى العلم نفسه ، فيتوسع فى الشرح ، ولا يلتزم القواعد العامة ، ولا يقتصر على رأى واحد ، وإنما يطلعه على أوجه الخلاف ، ويعرض عليه أدلة كل فريق ، وبهذا تجود ملكته .

وفى المرحلة الثالثة يكون الطالب قد شدا واستقام تفكيره ، ونضج ، وصار جديرا بإدراك العويص المستغلق ، فعلى المعلم ألا يدع خفيًا إلا وضّحه له ، وفتح مغلقه ، وأعانه على إدراكه . وبذلك يدرس العلم كله وقد تهيأت له ملكة راسخة فيه .

---

(١) المقدمة ٣٤٠

٢ — وعلى المعلم أن يقرب المعلومات إلى أذهان تلاميذه البادئين ، مستعينا بالأمثلة المحسوسة .

٣ — وبعد أن عرض هذه المراحل أشار إلى أن بعض الممتازين تجود ملكتهم قبل غيرهم ، وانتقد المعلمين الذين يجهلون طرق التعليم الصحيح ، فيعرضون على المبتدئ علوما لا تلائم عقله — ويحسبون ذلك تدريبا وتمرينا — أو يخلطون نهايات العلوم فى مبادئها قبل أن يستعد التلميذ لفهمها ، فيعجز عن وَعْيها ، ويكل ذهنه ، ويحسب العلم صعبا فيتكاسل عنه ، وينفر منه ، ويتمادى فى هجرانه .

تعليق

١ — لقد راعى أفلاطون ميول الطفل واستعداده فى تربيته وتعليمه [١] ، ودعا إليها ابن سينا ، فراعى قدرة الطفل فى المنهج الذى يدرس له ، وراعى ميله « ليعلم مدبر الصبى أن ليس كل صناعة يرومها الصبى ممكنة له مواتية ، لكن ماشاكل طبعه وناسبه ، وأنه لو كانت كل الآداب والصناعات تجيب وتنقاد بالطلب والمرام دون المشاكلة والملاءمة إذاً ما كان أحد غُفْلا من أدب أو عاريا من صناعة . . . . ولذلك نرى واحدا من الناس تواتيه البلاغة ، وآخر يواتيه النحو ، وآخر تواتيه الخطب . . . وآخر يختار علم الهندسة ، وآخر يختار علم الطب . . . » [٢] وأشار إلى التدرج من السهل إلى الصعب ، فيعلم الصبى القرآن أولا وحروف الهجاء ومعالم الدين ، ويُرَوَّى الرجز ثم القصيد ، فإذا ما فرغ من تعلم القرآن وحفظ أصول الفقه وجه إلى مايراد له [٦] .

(١) تاريخ التربية ٧٩ — ٨٣ (٢) رسالة السياسة لابن سينا ١٤
(٣) رسالة السياسة لابن سينا ١٣

وراعى الفارابى هذا الاستعداد أيضا فى قوله : « من المتعلمين أولو طبائع رديئة ، يقصدون تعلم العلوم ليستعملوها فى الشرور ، فينبغى للمرء أن يحملهم على تهذيب الأخلاق ، ولا يعلمهم شيئا من العلوم التى إذا عرفوها استعملوها فيما لا يُحَبّ . . . ومنهم البلداء الذين لا يرجى ذكاؤهم وبراعتهم فينبغى أن يحثهم على ما هو أعود عليهم . ومنهم ذوو الأخلاق الطاهرة والطبائع الجيدة ، فيجب ألا يدخر المعلم عنهم شيئا مما عنده من العلوم »[1] .

ثم أشار الغزالى إلى قدرة المتعلم العقلية بقوله : « من آداب المتعلم أن يبدأ بالأهم وألا يخوض فى فن حتى يستوفى ما قبله .

وذكر من آداب المعلم أن يقتصر على قدر فهم المتعلم ويتدرج به ، وقال إن المتعلم القاصر ينبغى أن يلقى إليه الجلىّ اللائق به ، ولا يذكر له معلمه أن من وراء هذا تدقيقا وهو يدخره عنه فإن ذلك يفتر رغبته فى الجلى »[2]

٢ — على أن هذه الأطوار التى ذكرها ابن خلدون وسابقوه هى نفسها أطوار التعليم فى هذا العصر ، فالمدارس تتدرج من ابتدائية إلى ثانوية إلى عالية ، وهذا هو النظام الطبيعى الذى تحتمه مراعاة النمو الفكرى .

ثم إن التدرج فى المرحلة الواحدة يتفق مع التربية الحديثة فى انتقالها من السهل إلى الصعب ، ومن المعلوم إلى المجهول ، ومن المعروف بالمشاهدة إلى المستنبط بالنظر والدليل .

فمثلا يرى (كومنيوس) صاحب الطريقة الطبيعية فى التعليم أن الطبيعة

---

(١) رسالة السياسة للفارابى ٢٩

(٢) إحياء علوم الدين ١/٤٣ — ٥٢

تبدأ أعمالها مجملة ثم تكملها وتفصلها وتتمم أجزاءها ، والصناع يترسمونها ، فيتدرجون من الكل إلى الجزء الواضح ، ثم إلى الخافى ، وكذلك يجب أن يسير المعلم (١) .

ويحتم بستالوتزى التدرج من السهل إلى الصعب (٢) .

ولقد ذهب بعض المربين المحدثين إلى تقسيم التلاميذ طوائف يتماثل أفراد كل طائفة فى درجة تفكيرهم أو أن تدرس كل طائفة من للعلوم ما يجانسها .

٣ — وابن خلدون فى نصحه للمعلمين أن يستعينوا بالأمثلة الحسية يتفق مع علماء التربية وعلماء النفس فى أن الحواس أبواب العلم ، وأن المعقولات كلها تتشعب من المحسوسات والمدركات الحسية ، وأن الطفل فى نشأته الأولى يندفع بغريزة المعرفة والاستطلاع إلى تحسس كل شىء ، فالحواس هى وسائطه إلى المعرفة ، وهى عون له على الحفظ والفهم وسرعة التذكر وسهولة التطبيق ، وقد حض إخوان الصفا على التدرج فى التعليم من المحسوس إلى المعقـــول ، قالوا : « ينبغى لمن يريد النظر فى مبادئ الموجودات ليعرفها على حقيقتها أن يقدم أولا النظر فى مبادئ الأمور المحسوسة ؛ ليروض بها عقله ، ويقوى على النظر فى مبادئ الأمور المعقولة ، لأن معرفة الأمور المحسوسة أقرب من فهم المبتدئين ، وأسهل على المتعلمين . وهم قد طبقوا ذلك فى رسائلهم ، فأكثروا من الأمثال والتشبيهات ، للتوضيح والإفهام وتثبيت المعلومات .

---

(١) تاريخ التربية ٢٦١ (٢) تاريخ التربية ٣٠٨

ويقول بستالتزى : « إن المعانى الواضحة لا تصل إلى عقول التلاميذ إلا عن طريق الحواس » .

ثم إن الوسائل الحية تربى الحواس أيضاً ، لأن العضو يحسن مامرن عليه

٤ — وإذا كان ابن خلدون قد قَرَّع المعلمين فى عهده ، لجهلهم طبائع الأطفال وقُدَرهم العقلية فقد أشبهه روسو فى حملته على المعلمين الذين رأوا أن العلم لا يجدى مالم يكن صعباً على المتعلم ثقيلا على نفسه . وقال فى مقدمة كتابه إميل : « إن كثيراً من المربين الحازمين ليخطئون فى مواقع التربية الصحيحة ، إذ يأخذون الأطفال بما يحتاج الرجال إلى معرفته ، غافلين عما تستطيع عقول الأحداث فهمه وإدراكه ، وإنهم ليخطئون كذلك حين يتطلبون فى جسوم الأطفال عقول الرجال ، ولا يفكرون فى حقيقة الطفل قبل أن يصير رجلا »[1] .

تعليم اللغة

يقول إن لغة الناس فى عصره نابية عن قواعد العربية وأوضاعها ، خارجة عن حدودها ، مغايرة لصحيحها . ويرى أن اللغة ملكة ، فمن الميسور تعلمها وإجادتها .

والطريق إلى ذلك :

١ — أن يبدأ المتعلم باللغة الفصحى ، لينطبع عليها لسانه وفكره ، فلا يُحَرِّف ولا يُصَحِّف ولا يلحن . وإنك لتجد سكان الأمصار أشد إغراقا فى اللحن من سكان البوادى ، ويشتد الإغراق ما بعد المصر عن

---

(١) تاريخ التربية ٢٩١

البادية . ذلك بأن أهل الأمصار لقنوا أول الأمر لغة ملحونة ، مغايرة لقواعد العربية ، منافية لملكتها ، فاعوجت ألسنتهم ، وفسدت لغتهم .

٢ — ولن يجدى المتعلمين تعلم النحو وحده كما يتوهم النحاة والمعلمون ، فيعجلون بتعليم الأحداث قواعد النحو ، ويحسبون أنها الوسيلة إلى صحة العبارة . وهم مخطئون ، لأن اللغة الفصحى لا تدرك إلا بمخالطة العرب الفصحاء ، واستماع كلامهم ، والدربة على التحدث بأساليبهم ؛ لأن اللغة ملكة ، والملكات لا تكتسب إلا بالتكرار والارتياض والمران ، فلقد كان العربى يحاكى أهله فى نطقهم وتعبيرهم كما يحاكى الطفل أهله فى النطق بالمفردات ثم بالتراكيب ، وبتكرار ذلك يحصل على ملكة اللغة .

ثم يقول : « وهذا هو معنى ما تقوله العامة : إن اللغة للعرب بالطبع أى بالملكة الأولى التى أخذت عنهم ، ولم يأخذوها عن غيرهم »[1] .

٣ — أن يحفظ من القرآن والحديث ومما خلّف العرب من شعر ونثر قدراً يقوم لسانه ويكسبه الملكة ، حتى يصير لكثرة حفظه كأنه قد نشأ فيهم .

٤ — أن يأخذ نفسه بالتعبير عما يريد ، على أنماط الأساليب العربية ، لأنه كلما أكثر من الحفظ والاستعمال كثر جيد كلامه ، وجاد كثيره .

٥ — ثم لا بد له مع ذلك كله من سلامة الطبع ، وفهم منازع العرب وأساليبهم ، وطرق تراكيبهم . ولا بد له من ذوق راق يميز جيد الكلام من رديئه ، وبليغه من فاتره وبارده .

---

(١) المقدمة ٤٨٩

٦ — وهو يشترط فى تعليم النحو أن يُصْحَب بتطبيق ، لأن تعلمه من غير تطبيق عبث ، وشتان بين الملكة اللغوية والصناعة اللغوية . فعلوم اللغة (علوم بكيفية) وليست (نفس الكيفية فليست نفس الملكة) وقد تستغنى الملكة عن علوم اللغة . ويمثل لذلك بمن يعرف صناعة يدوية معرفة نظرية لكنه لا يجيدها عملا ، ولذلك نجد كثيراً من جهابذة النحاة ، والمهرة فى صناعة العربية المحيطين علما بتلك القوانين إذا سئل كتابة سطرين لأخيه أو ذى مودة ، أو شكوى ظلامة ، أو قصد من مقصوده أخطأ فيها عن الصواب ، وأكثر من اللحن ، ولم يُجِد تأليف الكلام لذلك ، والعبارة عن المقصود على أساليب اللسان العربى . ولذا نجد كثيراً ممن يحسن هذه الملكة ، ويجيد المنظوم والمنثور وهو لا يحسن إعراب الفاعل من المفعول ولا المرفوع من المجرور ، ولا شيئاً من قوانين صناعة العربية »[1] .

وقليل من الناس يجيد الصناعة والملكة ، وهو يعزو ذلك إلى أنهم درسوا كتاب سيبويه « لأنه لم يقتصر على قوانين الإعراب فقط ، بل ملأ كتابه من أمثال العرب وشواهد أشعارهم وعباراتهم ، فكان فيه جزء صالح من تعليم هذه الملكة »[2] .

ويقرر أن الذين يدرسون النحو مجردا من شعر العرب ونثرهم ويحصلون على العلم صناعة لا ملكة ، وهذا هو الذى حدث فى بلاد المغرب فى عصره ، أما فى الأندلس فغير ذلك[3]

---

(١) المقدمة ٤٩٤ (٢) المقدمة ٤٩٤

(٣) المقدمة ٤٩٥

تعليق :

هذا رأى بيِّن الوجاهة يتفق والتربية الحديثة ، لأننا بالتقليد نتعلم اللغة صغاراً ونجيدها ونفتنُّ فيها كباراً .

فالتقليد والتمرن ، ورعاية الصحة فى النطق وفى التركيب أسس ثابتة لتعلم اللغة . لهذا رأى ڤترينو زعيم التربية الأدبية فى إيطاليا أن أنجع وسيلة لتعلم اللغة اللاتينية للأطفال أن يجعلها لغة المحادثة منذ الصغر ، يتفاهمون بها ، ويتحدثون مع أساتذتهم ، على أنه عُنى بتجويد نطقهم ، وجودة إلقائهم ، وتمثيلهم للمعانى . وكان يتدرج بهم فى محفوظاتهم من السهل إلى الصعب ومن القطع القصار إلى الطوال ، على حسب تدرجهم فى السن (١) .

ولما جاء لوثر نصح المعلم أن يعنى بحمل الأطفال على جودة المنطق وصحته ، بل آثر هذه العناية على عنايته بتدريس القواعد (٢) .

ولقد كانت عادة العرب ولاسيما الخلفاء أن يرسلوا أولادهم إلى البادية لتنشئتهم صحاح الجسوم والأخلاق والألسنة .

والتربية الحديثة تحرص على التطبيق غاية الحرص ، لأن دراسة قواعد اللغة والبلاغة لا تجدى ما لم تقترن بتمرينات ، وتحرص أيضاً على أن تعلم القواعد النحوية والبلاغية فى أساليب رائعة ، وعبارات منوعة .

تعليم الصناعة

يقرر أن الصناعة عمل جسمى فكرى ، فتعلمها من المباشرة أولى من

---

(١) تاريخ التربية ٢١٣ (٢) تاريخ التربية ٢٣٣

تعلمها بالنظر ، ويقول إن هذه الملكة تحدث عن تكرار الفعل مرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته [١] .

ويرى أن الذى اكتسب مهارة فى صناعة قل أن يجيد أخرى ، ومثال ذلك الخياط ، فإنه إذا كان بارعا فى الخياطة لا يجيد النجارة أو البناء ، إلا أن تكون الأولى لم تستحكم بعد ، والسبب أن الملكات صفات للنفس لا تزدحم ، ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات ، فإذا تلونت النفس بالملكة الأولى ضعف فيها الاستعداد لقبول ملكة أخرى .

ويقول إن هذا فى العلوم أيضا ، فمن أجاد علما قل أن يجيد معه غيره [٢]

تعليم :

رأيه فى تعليم الصناعة موافق لعلماء التربية المحدثين فى تدريسهم المواد التى تكسب المهارة ، وهم يقررون أن الأعضاء هى العامل الأول فى هذه الدروس ، وأن الذهن فى المحل الثانى ، ويرون أن الحواس وأعصاب الحركة هى العماد الأول ، ويقولون إن الانفعال بها ينتج حركة عضلية لا تفكيراً ، ويعتقدون أن الطريق إلى تعلم الصناعة وكسب لمهارة إنما هو التوجه إلى عناصر العمل والتدرب عليه دربة صحيحة .

أما حكمه بتعذر إجادة صناعتين أو علمين معاً فإنه موضع نظر . وسنعرض له بعد قليل .

---

(١) المقدمة ٣٣٥ (٢) المقدمة ٣٣٩